

قراءة في مشروع الحزب السوري القومي الاجتماعي عند أنطون سعاده*



توفيق مهنا

أنطون سعاده باحث النهضة السورية القومية الاجتماعية في الأمة، النهضة التي شملت ميادين المعرفة، فكرياً وفلسفةً واجتماعياً وثقافةً واقتصاداً، واخترت نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن، ما زالت راهنية، مفاهيمها حيية، ومحور اهتمام المفكرين والباحثين والنهضويين التأليين إلى رؤية أمتهم في موقع متقدم يليق بتاريخها وحضارتها.

من بين رؤا النهضة المجلين إبداعاً لم يسبق لأحد من هؤلاء الرؤاد أن اطل بهذه الشمولية على مندرجات النهضة ومعارج مفاهيمها الخلاقة، أو غاص عميقاً في وضع قواعد النهوض والمنطلقات والأدوات لنقل الأمة من واقع مرَضِي إلى واقع معافي ومرض.

نحن أمام مفكر من طراز آخر، صاحب رؤية نابعة من أصالة الهوية القومية، ومن منابث الجدور الحضارية لأتمته. اغتنى من وعاء هذه الحضارة وأغناها بفكره الوقاد وثقافته النهضوية المتميزة، إذ أضاف أبعاداً جديدة وأكد على عمق فكري ريادي ما زال يترك بصماته الدامغة في كتاب حياتنا القومية والنضالية، وتتوقد أفكاره إشعاعاً مع مرور الزمن.

أنطون سعاده، صاحب نهج معرفي إبداعي لا يتاعى، تفاعل مع ثقافة العصر الإنساني من منطلق «أن في النفس السورية كل علم وفن وفلسفة». من هذا المنطلق، أكد على استقلالية فكرية واستقامة منهجية، ليس فيها أي انبهار بيزيق البصر والبصيرة عن دور أمته الحضاري. لم يتفاعل مع الثقافة الإنسانية من موقع التحاقي أو دوني، أو من موقع التلقي، بل من موقع المشارك والمبدع والواهب للأمة والحضارة الإنسانية قيماً جديدة، ومثلاً جديدة، ونظرات إلى شؤون الحياة تمتد على مساحات التأمل والتطور والعطاء فكرياً وفلسفةً وأدبياً وفناً.

مشروع سعاده يتجاوز: مشروع الحزب السياسي الاعتيادي أو التقليدي، لانه يرمي إلى بعث نهضة شاملة تضع الأمة مجدداً على منصات الإبداع والمشاركة في مصير الحياة الإنسانية. وقد لخص الدفاع العميق لتأسيس الحزب في كلمة له أمام مؤتمر المدرسين القوميين:

«تعملون أن النهضة القومية الاجتماعية تعني تغيير اتجاه الأمة السورية من فوضى الإحطاط إلى نظام النهوض، من مصير الإضمحلال إلى مصير الوجود الحري، العامل، بوعي كامل، لأغراض الحياة الجيدة ومقاصد النفس القومية الكبرى. وتعملون أن الحزب السوري القومي الاجتماعي يحمل رسالة القومية الصحيحة إلى الأمة السورية ورسالة الحياة القومية الاجتماعية وفلسفتها المردحية إلى الأمة السورية وإلى الأمم جميعاً. فالنهضة السورية القومية الاجتماعية، إذن، هي حدث تاريخي خطير، هي اعظم الأحداث التاريخية التي مرت بهذه الأمة شأنها بلا استثناء، وإذا نظرنا في مهمة الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي يحمل رسالة النهضة القومية الاجتماعية الإجتماعية وجدنا أنها أشق مهمة ظهرت في تاريخ أي أمة من الأمم، فلم يك قط لفضوي التي تتخبط فيها الأمة السورية مثيل، ولم يبلغ الفساد في أمة من الأمم، في أي وقت من الأوقات، مبلغه في أمتنا إلى هذا الوقت.

بهذه المناسبة، أريد أن أبرز نقطة يجب أن تصير واضحة في تفكير المفكرين السوريين القوميين الاجتماعيين لأنها سبب من أهم أسباب التخبط النفسي والعمل، إلا وهي: خلوة مجتمعنا القومي، مدة أجيال وقرون طويلة، من مؤسسات قومية بالمعنى الصحيح ومن تقاليد قومية عامة يصح الاستناد إليها. فالتقاليد القومية الجيدة، القديمة، كانت مبغضة ومشينة، والمؤسسات لا تصلح بالمرة ولا يصح اعتماد أي مؤسسة منها نقطة ارتكاز، أو انطلق، في عمل البناء القومي الاجتماعي».

استناداً إلى هذه القراءة لواقع الأمة والمؤسسات القائمة، بادر إلى تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي وحشد مشروعه الاستراتيجي وغاياته.

مفهوم الحزب:

الحزب، أداة النهضة، والحزب، فكرة وحركة ومؤسسات تتناول حياة أمة بأسرها، وهو منظمة تفعل فكر، وسياسة، وإدارة وحرباً، بهدف بناء الإنسان الجديد والمجتمع الجديد، والدولة المدنية الجديدة. الحزب، وجد لغاية عظيمة محددة في غاية الحزب وهي: «بعث نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمة السورية حيويتها وقوتها، وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً وتثبيت سيادتها وإقامة نظام جديد يؤمن مصالحها ويرفع مستوى حياتها، والسعي إلى إنشاء جبهة عربية تحقّق سداً متبعا في وجه الإرادات الاستعمارية».

لنع تماماً مشروع الحزب السوري القومي الاجتماعي، في فكر أنطون سعاده لا بدّ إذاً من الاطلاقة على المشهد القومي والدولي، وعلى حال الأمة في تلك المرحلة من التطور التاريخي الذي وجدت فيه.

ذاك الواقع المرير، هن كيان أنطون سعاده ووجدانه، وشكل منبع القلق الوجداني العميق الذي دفعه إلى إنشاء حركة تنقذ الأمة وتنتشلها من مهبوط الانقسام والتجزئة والانعطاط، وتطلق طاقاتها في ميادين التقدم والتطور والتمدّن والإرتقاء والحدائنة.

المشهدان القومي والدولي

كان واقع أمة خاضعة طوال أربعمئة سنة وتبث لاحتمال العثماني، لا هوية مستقلة لها ولا شخصية حقوقية تحفظ كيانها ومصالحها، واصطلاح على تسمية واقع ذلك الزمان بعصر الانحطاط على كل صعيد.

نادى بها، وبين القومية العربية أو الأمة العربية.

إن الجبهة العربية التي سعى إلى إنشائها هدفها أن تكون سداً منيعاً وجبهة قوية تصون مصالح الأمة وقضايا العالم العربي ولا تكون كما واقع الحال مع الجامعة العربية، منصّة للتآمر على قضايانا في فلسطين والشام والعراق ولبنان أو ليبيا واليمن والسودان وغيرها من الدول العربية. أو هي شعار استهلاكي من أنظمة النقط العربية التي بدت فريدة النقط الاستراتيجية لتبدأ كاملاً ولم توظف هذا السلاح في خدمة القضايا القومية والعربية، ولا التصنيع والاقتدار. وما استهلاك بعض الأنظمة العربية الخليجية شعار في مخططات التنمية وتطوير بني المجتمع وتحويل اقتصادياته لخدمة النمو والتصنيع والاقتدار. وما استهلاك بعض الأنظمة العربية الخليجية شعار العروبة، إلا ذلك للراماد في العيون، فأين كانت عروبة هذه الأنظمة في فلسطين أو لبنان والعراق أو الشام أو اليمن أو ليبيا ومصر والسودان؟

كما يرفع شعار العروبة هذه الأيام للاستهلاك المذهبي في وجه الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وفي وجه حزب الله المقاوم، لإثارة نعرات بائدة. ولو كان هذا الشعار صادقا، لكانت ترجمته في فلسطين وفي مواجهة الإرهاب الذي يتغذى من عقيدة وهايبية هي منبع الثقافة الصحراوية الإغناطية ومصدر الفتاوى الجاهلية في زمن العلم والنور والأمنوار.

البرنامج السياسي-الإصلاحي:

إن مشروع سعاده وحزبه، أُرسى على بعض هذه القواعد والمنطلقات الأساسية، وكل نضال أو عمل سياسي أو موقف عملي من القضايا والتحديات المطروحة وما أكثرها ينبع من هذه الرؤيا والمقاربة. وإن البرامج المرورية الإصلاحية للوصول إلى تحقيق الغاية من إنشاء الحزب، تضمنتها برنامج الإصلاح السياسي والاقتصادي الشامل الذي طرحه سعاده عام 1947 مع حوض الانتخابات اللبنانية الأولى في تاريخ لبنان، لقيام دولة عصرية تقوم اقتصاداً على مبدأ الإنتاج، وعلى أساس التكامل الاستراتيجي مع البيئة الطبيعية لتحقيق العدالة الاجتماعية. ورفض سعاده النظام الرأسمالي الطبقي والنظام الشيوعي، لأن كلا النظامين لا يوفّران الحياة الكريمة لغفان شعبيتنا وقواد المنتجة فكرياً وصناعةً وغلا. كما ضمن برنامج الثورة القومية الاجتماعية الأولى عام 1949 هذه القواعد الإصلاحية.

إن الحكام الرجعيين المتآمرين رأوا في مشروع التحري على المستوى القومي خطراً، كما رأوا في مشروعه الإصلاحي الداخلي خطراً، وفي مشروع النهضة خطراً. لأنهم أدوات تخدم أعداء الأمة. وكانت فلسطين محك خيانتهم وآثارهم، كما كان تطوير النظام محك فسادهم واستغلالهم واستعبادهم وخنقهم صوت الحرية والأحرار، فصخ قول سعاده عنهم: «إن بلادنا بيهود الداخل أشد من بلادنا بيهود الخارج». ترى، الاصدق هذا القول على حكام هذا الزمان الذين يتآمرون على المقاومة وقيادتها وسلاحها وخياراتها ويؤذون كل نهج إصلاحي.

لكن مشروعه باق وحزبه أكثر تماسكاً بهذا المشروع في كل أبعاده القومية والتحررية والنهضوية. تقبل عليه أجيال جديدة على مدى مساحة أرحمه، ويستعيد لفته لدى نخب فكرية وأدبية وسياسية من خارج أبناء عقيدته وحزبه، تعيد ثقافته وتستهلم رؤيته الاستراتيجية.

* محاضرة ألقاها نائب رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي الأمين توفيق مهنا في معهد المعارف الحكمة للدراسات الدينية والفلسفية، في إطار حلقة بحثية بعنوان «أنطون سعاده وأطروحة الفكرية» (2016/02/22).

ورائد الدعوة إلى الكفاح المسلح في وجه بلفور.

مفهوم الدين:

سعاده رائد الدعوة إلى دولة قومية اجتماعية، لا تقوم هوية النظام السياسي فيها على أساس طائفي أو عرقي أو عشائري. فالقومية لا ترتكز على الدين ولا على العرق ولا على اللغة، بل على مفهوم جديد للأمة وتطورها والدولة ونشأتها. رفض القومية العرقية واللغوية والعنصرية والدينية، وجاهر لمفهوم اجتماعي يوحد شعبيتنا في أرضه وعلى أرضه، ليقف من جديد شعباً واحداً لا كتلة متنافرة في عالم تنازع البقاء.

سعاده رائد مقاربة جديدة للدين، نظر نظرة توحيدية سامية باعتباره إرباً روحياً وإبداعاً من إبداعات أمتنا والعالم العربي، وقد صعد التحضّب الطائفي وضدّ النّمية وضدّ مفهوم الأثرة والأقلية، مركزاً فقرته على مبدأ المواطنة والهوية القومية الواحدة والحقوق الواحدة لجميع المواطنين، حقوقاً واحدة متساوية وواجبات واحدة متساوية خارج كل تصنيف أو امتيازات، لا طائفة حاكمة ولا طوائف حاكمة أو محكومة، بل هي دولة المواطن بكفاءته وقدراته وعطاءاته، وإذا كانت الآية القرآنية تقول «إن أقربكم إلى الله اتقاكم»، فإن النص القومي الاجتماعي عند سعاده يقول: «إن أقربكم إلى الأمة أكفؤكم».

دعوة سعاده، إلى فصل الدين عن الدولة تختلف تماماً عن أي دعوات إلى إنكار الدين أو تخفيفه عن شؤون المجتمع والحياة. بل هي حصراً دعوة إلى عدم مزج الدين بالسياسة يبقى الدين رابطة إيمانية بين الفرد وخالقه، ومزجها عن تمهات العمل السياسي التي قد تسيء إلى جوهره والفضاء الروحي بقيمه وسمو أفاقه. وإذا كان الغرب في مدارس قد أكثر الدين والعمل الديني في حياة الأفراد والجماعات، فإن سعاده وضع موقع الدين في مرتبة عالية لتشريف الحياة.

لقد أرسى سعاده مفهوماً جديداً للفلسفة بإطلاقه نظرية جديدة هي نظرية المردحية ليخرج العالم من يؤس نظريات مادية أو روحية متصارعة ومتضاربة ومبددة للطاقة الإنسانية ومعيقة للتطور. وكتابه «الإسلام في رسالته المسيحية والمحمدية، بشكل مرجعاً في نظرة جديدة ترى في الدين كتاباً واحداً برسالاتيه المسيحية والمحمدية، ودعوة قومية: «كلنا مسلمون لرّب العالمين، منا من أسلم لله بالإنجيل، ومنا من أسلم لله بالقرآن، ومنا من أسلم لله بالحمكة، ولا عدو لنا يقاتلنا في ديننا وأرضنا وحقنا إلا اليهود».

إن هذه الرؤيا الراقية والموحدة تجعل الحزب السوري القومي الاجتماعي في موقع واحد مع كل قوة أو حركة مقاومة تصوب سلاحها إلى العدو القومي لإمتنا، وإن التأخي الجهادي بين بندقية قومية وبندقية جهادية من أجل فلسطين والجولان وشيعة ومزارعها وفي مواجهة الإرهاب وقواد في الشام والعراق ولبنان وسائر المنطقتة، تتعرّز في معمودية النار ودماء الشهداء الزكية لرد هذه الغزوة عن بلادنا، وإسقاط أطراف المؤامرة الإقليمية، خصوصاً هذا التحالف التركي-السعودي-الخليجي مدعوماً من القوى الاستعمارية والعدو الصهيوني، وتقويض مخطط الفتنة الذي يهدف إلى طعن مواقع الصمود القومي في أمتنا من لبنان إلى الشام، وحرف بوصلة الصراع عن محورها الطبيعي والتاريخي والاستراتيجي.

مفهوم العروبة

سعاده صاحب نظرة جديدة إلى العروبة، حيث هي رابطة تعاون استراتيجية بين أمم العالم العربي. رابطة حضارية لا رابطة قومية، وميّن تمييزاً أساسياً بين مفهوم العروبة الواقعية التي

كان واقع أمة، تواجه على أرضها تداعيات الحرب العالمية الأولى ويتزع أهل «الحل والربط» فيها من حكام وجماعات إلى التحزّن من الهيمنة العثمانية بالرهان على قوى استعمارية بذيلة. ولقد استفاقت الأمة في ظل هذا الصراع على واقع تأمري تمثل بمعاهدة «سايس-بيكو» عام 1916 و«وعد بلفور» عام 1917، يقسمها ويستنبح قسماً من أرضها إنفاذاً لوعد بلفور المشؤوم تهودياً وزخفاً للهجرات اليهودية تغزرو أرضنا وتطردها شعبنا.

الإمة إذا أمام مؤامرة «سايس-بيكو» و«وعد بلفور»، وأمام استعمار جديد حل محل الاستعمار العثماني، وأمام كيانات تناسلت دول بقرارات استعمارية غصبا عن إرادة شعوبها، وفي غفلة منها وأمام قيادات سياسية ومرجعيات إقطاعية وطائفية، مرتهنت لإرادة القوى الخارجية، تهتم بمصالحها على حساب المصالح الحيوية الكبرى للأمة والمجتمع. وتتغافل عن خطر تمزيق وحدة البلاد السورية وعن خطر زرع كيان يهودي تفت وراءه وتعمل له الحركة الصهيونية بدعم من الدول الاستعمارية. وأمام واقع اجتماعي مفكك على أساس الولاءات الطائفية والمذهبية والعشائرية والقبلية والعائلية يحكمه ما يسمى «بالأعيان»، وهم في الحقيقة «عيان» عن قضايا الأمة والشعب والمجتمع.

مشروع سعاده، إذاً:

- تنظيم حركة تستمدّ وحدة الأمة على المستوى القومي رداً على مؤامرة «سايس-بيكو» ورفض المفعول الاستعماري بقيام كيانات هزيلة تشكل غطاءً بدوام الاستعمار وإطالة سيطرته وهيمته على مقدرات بلادنا وثرواتها. فالوعي القومي أساس المشروع كان ولم يزل.

- حركة تؤسس الوحدة الاجتماعية من منطلق أن شعبيتنا واحد مهما تفرقت طوائفه أو مذاهبه، ومهما كانت طبيعة بنيتها الاجتماعية العائلية أو العشائرية أو العرقية.

- حركة مقاومة للاستعمار والانتداب، فالحزب منظمة تحرير قومية بالفكر والسلاح، وبحق يجب أن نشهد أن سعاده كان رائد الدعوة القومية إلى الكفاح المسلح عندما دعا إلى قتل بلفور عام 1925 عندما أتى إلى سوريا، ودعى إلى أن فلسطين لا تسترد في الخطاب والندوات، لأن الأمر الوحيد الذي يخيف اليهود القوة، القوة هي القول الفصل في إثبات الحق القومي أو إنكاره، ودعا إلى قومية المعركة لأن الشعب الفلسطيني غير قادر منفرداً أن يرد هذه الغزوة الاستعمارية ومن يقف وراءها.

مفهوم الهوية:

الهوية القومية الاجتماعية، هي أساس مشروع سعاده الفكري والاستراتيجي، وقد وضع منطلقات وقواعد بناء الهوية في مبادئ الحزب الأساسية وفي كتابه العلمي المميز «نشوء الأمم».

وهذا المفهوم الجديد، أرسى مفهوم الهوية على قاعدة قومية اجتماعية جامعة توحد الولاء القومي والمجتمعي في آن، وتزيل كل الحواجز والعقبات التي تنال من وحدة الأمة، وتعود إلى بناء المشروع النهضوي ببناء جديد لبناء يرتبط بقضية هي قضية الأمة والوطن والشعب، جيل يدرك مصالحه خارج منظار الوعى الزائف الذي هو في الحقيقة جهل مطبق.

فالهوية الكيانية أو الطائفية أو المذهبية أو العرقية لا تبنى وطناً ولا تقيم مجتمعاً ولا تؤسس دولة حديثة، بل هي على نقيض كل هذا. وإن جميع هذه الولاءات المتنافرة في مصدر تخلف اجتماعي، وقاعدة لارتبانات الخارجية ومؤامرات اطرافها ودولها.

لذلك، فإن سعاده رائد الوحدة القومية في وجه «سايس-بيكو»، وقال الحسينية: سعاده أكد أن الأمة السورية هي إحدى أمم العالم العربي، بل هي قائدة لهذا العالم العربي، ونقول للذين يتحدثون عن العروبة إن العروبة هي فلسطين، والعروبة تعني قتال المحتل الصهيوني، لا قتال من يقاتل العدو، والعروبة ليست عروبة اللغة، فكل من يقف إلى جانب المسألة الفلسطينية هو أقرب إلى العروبة من أديانها، ونحن نثخن موقف إيران الداعم للمقاومة في فلسطين.

وأوضح الحسينية خيوط المؤامرة على أمتنا منذ ما قبل «سايس-بيكو»، ورأى أن ما نتعرض له أمتنا اليوم يرمي إلى تفتيتها وتدمير مقوماتها وعناصر قوتها لمصلحة «إسرائيل».

وتحدّث عن مخاطر الطائفية والمذهبية، لافتاً إلى أن مصلحة وطننا، تكمن في الدفاع عن أرضنا وشعبنا، وهذا واجب قومي لن نتخلى عن القيام به، لأنه لا حياة حرة، ولا مواطنة حقيقية، إذا لم تكافح ونناضل في سبيل الدفاع



الدولة، قيادة وجيشاً وشعباً لمصلحة مخطط التفتيت والتدمير، وهي حرب ضدّ المقاومة دولاً وأحزاباً، وحرب تستهدف إلغاء التنوع، وتمزيق الوحدة الاجتماعية. وتابع: نحن في الشام نقدم الشهيد تلو الشهيد وندافع عن الأرض انطلاقاً من إيماننا بوحدة الأرض. وكما أتى خالد الأزرق من الشام ليستشهد دفاعاً عن لبنان، يذهب رفاقنا من لبنان ليستشهدوا دفاعاً عن الشام، فالأرض القومية واحدة، والدفاع عنها واجب قومي.

وأكد أن دعاء شهداء الحزب السوري القومي الاجتماعي لن تذهب هدراً، ونحن نشدّ على أيدي المقاومين الأبطال على الجبهات وندعو إلى المزيد من المقاومة والقتال لكسر المشروع الإرهابي الاستعماري التقسيمي والتفتيتي. وخدمت الحسينية محاضراته بتوجيه التحية إلى دم كل شهيد يرتقي في هذه المعركة، مؤكداً أن أخطبوط الإرهاب بدأ بالانكسار، وإن المشروع القومي بدأ يطحو خطواته نحن النصر.

عن أرضنا وفي سبيل تحرير الأجزاء المحتلة والسليبية. وتحدثت الحسينية عن المؤامرة التي تستهدف لبنان منذ صدور القرار 1559، مؤكداً أن القوى الوطنية والقومية في لبنان واجهت هذا التحدي بمسؤولية وصدات لبنان من المخاطر ومنعت الزلافة إلى الهاوية. وأكد الحسينية أن المقاومة هي خيار تتسمك به، في مواجهة العدو الصهيوني، ونحن نقفون أننا بهذا الخيار سنهزم الاحتلال والإرهاب، وسلاح المقاومة هو سلاح الشرف، به نحمل لبنان واللبنانيين. وأضاف الحسينية: نحن نعتز باننا رؤاد المقاومة، وقدّمنا الشهداء والأستشهاديين في مواجهة الاحتلال، كما نعتز بمقاومة حزب الله التي استكملت هذا الطريق وكجزء المقاومة قوة استراتيجية محققة للتوازن مع هذا العدو الصهيوني.

وقال، ما يحصل في الشام ليس صراعاً بين دولة ومعارضين لهذه الدولة، بل حرب كونية تستهدف إسقاط

لمناسبة عيد مولد باعث النهضة الزعيم أنطون سعاده، نظمت مديرية لبيا التابعة لمفوضية البقاغ الغربي في الحزب السوري القومي الاجتماعي، محاضرة في مكتبها بعنوان: «الأمة السورية في مواجهة التحديات»، ألقاها عميد الإذاعة والإعلام وإائل الحسينية، وذلك بحضور منفذ عام البقاغ الغربي د. نضال منعم وأعضاء هيئة المنقذية، مدير المديرية وأعضاء هيئة المديرية، كما حضرها حسين عبد الرسول ميثلاً حزب الله، وعباس موسى ومحمد عبد الرسول ممثلين حركة أمل، مشهور عقل ممثلاً الحزب الشيوعي، مسؤولة الهيئة النسائية في حركة أمل سميرة اسماعيل، وفد من الشباب الديمقراطي، رئيس بلدية لبيا حسين عقل ومختار البلدة حسيب إبراهيم وفايز اسماعيل، وجمع من القوميين والمواطنين.

قدم للمحاضرة علاء عبد القادر، بكلمة تناول فيها معاني المناسبة، وأسثل الحسينية محاضراته بالإشارة إلى أن الأول من آذار هو ميلاد عقيدة وانبعث أمة.